قصصُ الأنبيَاءِ للأطفَالِ

(٢٥)

مُحَمَّد

(صلَّى اللَّهُ عَليهِ وسلَّم)

الجزء الرابع

بقلم/ ناصر عبد الفتاح

الناشر
دار التقوى
للنشر والتوزيع

الكتاب:
قصص الأنبياء للأطفال
(محمد ﷺ - ٤)
المؤلف:
ناصر عبد الفتاح
الناشر:
دار
التقوى
للنشر والتوزيع
٨ شارع زكى عبد العاطى
(من شارع عمر بن الخطاب)
عرب جسر السويس - القاهرة.
ت: ٢٩٨٩٩٤٣
المدير المسئول/ محاسب
عبد الناصر إبراهيم إمام
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة
للناشر ولا يجوز إعادة طبع أو اقتباس
جزء منه بدون إذن كتابى من الناشر.
الطبعة الأولى
١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٥م
الطبعة الثانية
١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٦م
رقم الإيداع: ١٧١٧٦ / ٢٠٠٤
I. S. B. N. 977-5840-25-2
كمبيوتر:
آرمس - ت: ٧٩٦٤٤٠٤

صاحَ رجالٌ من قبيلةِ خُزاعةَ : نحنُ فِي عقدِ محمدٍ وعَهدِهِ.

وصاحَ رجالٌ مِن بنِي بكرٍ : نحنُ فِي عقدِ قريشٍ وعهدِهِم.

قَالَ سُهَيْلٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ : إنَّكَ تَرْجِعُ عنَّا فِي عَامِكَ هَذَا فَلاَ تَدْخُلَ عَلَيْنَا مكَّةَ ، وإنَّهُ إذَا كَانَ عَامَ قَابِلَ (قَادِمَ) خَرَجْنَا عَنْهَا فَدَخلْتَهَا بأَصْحَابِكَ ، فَأَقَمْتَ بِهَا ثَلاَثًا مَعَكَ سِلاَحُ الرَّاكِبِ ، السُّيُوفُ فِي القربِ : لاَ تَدْخُلْهَا بِغَيْرِهَا.

وَفِي تِلْكَ اللحْظَةِ أَقْبلَ أَبُو جَنْدَل بن سُهَيْل بَنِ عَمْرو يَرْسُفُ فِي قُيُودِهِ وَانْضَمَ للمسْلِمِينَ ، فَجَذَبَهُ أبوه ، فَقَالَ الرسُولُ ﷺ : «إنَّنَا لَمْ نَقْضِ (نُنْهِي) الكِتَابَ بَعْد ..». لَكِنَّ سُهَيْلاً ضَرَبَ ابْنَه فَصَرَخَ أَبُو جَنْدَلٍ ، وقَالَ : أأُرَدُّ إلَى المشْرِكِينَ يَضْرِبُونِي فِي دِينِي؟

فَقَالَ الرسُولُ ﷺ : «يَا أَبَا جَنْدَلٍ اصْبِرْ واحْتَسِبْ ، فَإِنَّ اللهَ جَاعِلٌ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ مِنَ المسْتَضْعَفِينَ فَرَجًا وَمَخْرَجًا ، إنَّا قَدْ عَقَدْنَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ القَوْمِ صُلْحًا ، وَأَعْطَيْنَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَأَعْطَوْنَا عَهْدَ اللهِ فَلاَ نَغْدِرِ بِهِمْ.

حَزِنَ بَعْضُ الصَّحَابةِ ، لأنَهَّمُ منِعُوا مِنْ زِيَارَةِ الكَعْبَةِ ، وتَأَلَّمَ

عُمَر بنُ الخطَّابِ وَتَسَاءَلَ : يا رَسُول اللهِ ، أَلَسْتَ بِرسُولِ اللهِ ؟ قَالَ الرَّسُولُ ﷺ : بلَى .

قَالَ عُمَرُ : أَوَلَسْنَا بِالمسْلِمينَ ؟ قَالَ الرَّسُولُ ﷺ : « بلَى »

قَالَ عُمَرُ : أَلَيْسُوا بِالمشْرِكِينَ ؟ قَالَ الرَّسُولُ ﷺ : بلَى .

تَعَجبَ عُمَرُ ، لأَنَّ الرَّسُولَ ﷺ قَبِلَ الصُّلْحَ ، وَخَشِيَ أَنْ يظُنَّ المشْرِكُونَ ذَلِكَ ضَعْفًا وخُضُوعًا ، فَقَالَ الرَّسُولُ ﷺ : أَنَا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ ، لَنْ أُخَالِفَ أَمْرَهُ وَلَنْ يُضَيِّعَنِى .

وَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ ﴾ [الفتح]

تَسَاءَلَ عُمَرُ : أَوَفَتْحٌ هُوَ ؟

قَالَ الرَّسُولُ ﷺ : نَعَمْ.

وَفَهِمَ عُمَرُ أَنَّ تِلْكَ الهُدْنَةَ فَتْحٌ وَنَصْر ، لأَنَّهَا هَيَّأَتْ الفُرْصَةَ لِتَفَرُّغِ الرَّسُولِ ﷺ لِلْدَّعْوَةِ الإِسْلامِيَّةِ فِى شَتَّى أَقْطَارِ الجزِيرَةِ وَخَارِجِهَا .

وَأَسْلَمَ عَدَدٌ مِنْ أهْلِ قُرَيْشٍ ، فَرَدَّهُمُ الرَّسُولُ ﷺ تَنْفِيذًا لمعَاهَدَةَ الحُدَيْبِيةِ ، إِلاَّ أَنَّهُمْ مَكَثُوا فِى الطَّرِيقِ يَعْتَرِضُونَ قَوَافِلَ قُرَيْشٍ، فَاسْتَغَاثَتْ بِالنَّبِىِّ ﷺ تَرجُوهُ أَنْ يَقْبَلَ مَنْ جَاءَ مُسْلِمًا وَلاَ يَردَّه .

وَانْضَمَّ إِلَى قَافِلَةِ المسْلِمِينَ عَمْرُو بنُ العَاصِ ، وَخَالِد بنُ الوليدِ ، وَعُثْمَانُ بنُ طَلْحَةَ .

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « إِنَّ مكَّةَ قَدْ أَلْقَتْ إِلينَا أَفْلاذَ كَبِدِهَا » .

أَرْسَلَ النبيُّ ﷺ رَسَائِلَ إِلَى الملُوكِ وَرُؤسَاءِ القَبَائِلِ ، يَدْعُوهُم إِلَى الإِسْلامِ ، فَأَسْلَمَ بَعْضُهُمْ وأَبَى آخَرُونَ .

غزوةُ خيبرَ (المحرم ٧ هـ)

عادَ النبيُّ ﷺ إلىَ المدينةِ بعدَ أنْ وقَّعَ معاهدةَ الحديبيةِ ، وأمنَ خطرَ قريشٍ وبدأَ يعدُّ خطةً لتأديبِ يهودِ خيبرَ .

وكانتْ خيبرُ مدينةً ذاتَ حصونٍ ومزارعَ يقطنُ بهَا اليهودُ ، وكانتْ وكرًا للمؤامراتِ والمكائدِ ، فقدْ حزَّبَ أهلُهَا الأحزابَ ضدَّ المسلمينَ وهُمْ مَنْ حرضُوا بني قريظةَ علَى الغدرِ والخيانة ، كمَا أنَّهُمْ تآمرُوا معَ المنافقينَ وانتهى بِهُم الأمرُ أنْ وضعُوا خُطةً لقتلِ الرَّسولِ ﷺ .

أعدَّ الرَّسولُ ﷺ جيشًا قوامُهُ ألفٌ وأربعمائة جندىٍّ وزحفَ إلى خيبرَ ، إلاَّ أنَّ عبدَ اللَّهِ بن أُبي زعيمَ المنافقينَ أرسلَ إلى يهودِ خيبرَ :

إنَّ محمدًا قصدَ قصدكُمْ وتوجَّه إليكُمْ ، فخذُوا حذرَكُمْ ولا تخافُوا منه ، فإنَّ عددَكُمْ وعدتَكُمْ كثيرةٌ، وقومُ محمدٍ شرذمةٌ (جماعة) قليلونَ عُزَّل ، لا سلاحَ معَهم إلاَّ القليلُ .

استنجدَ يهودُ خيبرَ بقبيلةِ غطَفانَ على حربِ المسلمينَ نظيرَ منحِهم نصفَ ثمارِ خيبرَ .

تهيأتْ غطفانُ وخرجتْ جمُوعُهم نحوَ خيبرَ ، إلا أنَّهُمْ ترددُوا وألقَى اللَّهُ فِي قلوبِهم الرُّعبَ وخشُوا أنْ ينقضَّ النبيُّ ﷺ بجيشِهِ عليهِم فارتدُّوا عائدينَ .

اخترقَ جيشُ المسلمينَ الصحراءَ وسلكَ النبيُّ ﷺ طريقًا يمكِّنه مِن دخولِ خيبرَ مِنْ جهةِ الشمالِ ، حتَّى يمنعَ اليهودَ مِن الفرارِ إلى الشامِ ويحُولَ بينَهُمْ وبينَ غطفانَ .

اقتربَ الجيشُ من خيبرَ ، فأقامَ معسكرَه ودعَا النبيُّ ﷺ : «اللهُمَّ ربَّ السماواتِ السبعِ ، وما أظلَلْنَ ، وربَّ الأرضينَ وما أقلَلْنَ وربَّ الشَّياطينِ وما أضْلَلْنَ ، فَإنَّا نسألُكَ خيرَ هذهِ القريةِ وخيرَ أهلِها ، وخيرَ ما فِيها ، ونعوذُ بِكَ من شَرِّ هذهِ القريةِ وشَرِّ أهلِها ، وشَرِّ مَا فِيها .. اقدمُوا باسمِ اللَّهِ» .

وانقضَّ جيشُ المسلمينَ علَى حصونِ اليهودِ يفتحُها حصنًا وراءَ الآخرِ ، وفرَّ الأعداءُ إلى أقوى حصُونِهمَا الوطيحِ والسلالمِ ، خرجَ

زعيمُهم مُرحبٌ اليهوديُّ ودعَا إلى مبارزة، برزَ الصحابيُّ محمدُ بنُ مسلمةَ وحَمَل على مرحبٍ فقضى عليه. ووثبَ ياسهُ أخو مرحبٍ ودعا إلَى المبارزةِ، فانقضَّ عليهِ الزُّبيرُ بنُ العوَّامِ وقضى عليه.

اشتَبَكَ جنودُ المسلمينَ معَ حُرَّاسِ أحَدِ الحصُونِ المنيعةِ، ودارَ القتالُ عنيفًا حتَّى فُتِحَ الحصنُ بعدَ ثلاثة أيامٍ، وحاصَر النبيُّ ﷺ آخر حُصونِ اليهودِ أربعةَ عشرَ يومًا حتَّى أيقنُوا بالهلاكِ، فأعلنُوا استسْلامَهُم وفَتحَ اللَّهُ تعالَى خيبرَ.

قَدِم جعفرُ بنُ أَبِى طالبٍ من الحبشةِ يومَ فَتحِ خَيبرَ، فقبَّلَهُ النبيُّ ﷺ وقالَ: مَا أدْرِى بأيِّهِمَا أنا أُسَرُّ، بِفتحِ خيبرَ أمْ بقدومِ جعفرَ؟

عادَ النبيُّ ﷺ إلى المدينةِ، ثُم خرَجَ وأصحابُهُ فِى شهرِ ذِى القعدةِ لأداءِ العُمرةِ، صَعدَ أهلُ مكَّةَ الجبلَ حتَّى أدَّى المسلمونَ العُمرةَ، وأقَام النبيُّ ﷺ بمكَّةَ ثلاثةَ أيامٍ ثمَّ انطلقَ عَائدًا إلى المدينةِ المنورةِ.

غَزوةُ مؤتَةَ

(جُمادى الأولى ٨ هـ)

كتبَ النبيُّ ﷺ رسالةً إلى حَاكِمِ بُصْرَى بالشَّامِ يدعوهُ فيها إلى الإسلامِ، وبعثَ الحارثَ بنَ عُميرٍ الأزديَّ بالرسالةِ، وفِى الطريقِ

تعرَّضَ شُرحْبِيلُ الغسَّانيُّ عَاملُ قَيْصرَ على منطقةِ البلقاءِ للحارثِ فقيَّدهُ وقَضَى عليهِ.

حَزنَ النبيُّ ﷺ لمقتلِ رسولِهِ واستخفافِ قاتله به ، فجهَّزَ جيشًا قوامُهُ ثلاثةُ آلافِ جنديٍّ تحتَ قيادةِ زيدِ بنِ حارثةَ ، وأعطاهُ لواءً أبيضَ، وقال : « إن أُصيبَ زيدٌ فجعفرُ بنُ أبي طالبٍ علَى النَّاسِ ، وإن أُصيبَ جعفرُ فعبدُ اللهِ بنُ رواحةَ على النَّاسِ ».

ودَّع النبيُّ ﷺ الجيشَ وأوصاهُمْ قائلاً: « اغزُوا باسمِ اللَّهِ فِي سبيلِ اللَّهِ مَنْ كفرَ باللَّهِ ، لا تَغْدرُوا ولا تَغُلُّوا ولا تقتلُوا وليدًا ولا امرأةً، ولا كبيرًا فَانِيًا ، ولا مُنعزِلاً بِصومعةٍ ، ولا تَقْطَعُوا نخلاً ولا شجرًا ولا تهدمُوا بناءً ».

انطلقَ الجيشُ في اتجاهِ الشَّمالِ حتَّى نزلَ الشامَ ، وبلغَ المسلمِينَ أنّ هِرَقْلَ مَلِكَ الرومِ حَشدَ جيشًا قوامُهُ مائتا ألْفِ جنديٍّ .

تحيرَ المسلمونَ وأقامُوا ليلَتيْنِ في مُعسكرِهم يُفكّرونَ فِي أمرِهِمْ ... ثلاثَةُ آلافِ مُسْلمٍ أمَام مائَتي ألفِ مُشركٍ. وتساءَلَ البعضُ : كيَفَ نَقْهَرُ أقْوى دولةٍ عُظْمَى فِي العَالمِ يَدِينُ لهَا كثيرٌ مِنَ البِلادِ والقَبائلِ العربيةِ بالولاءِ والطاعة.

وأخيرًا قالوا : نكتبُ إلى رسُولِ اللهِ ﷺ فنُخْبِرهُ بعَددِ عَدُوِّنا ، فَإمَّا أن يُمدَّنا بالرجالِ ، وإمَّا أن يأمُرَنا بأمْرِه فنمضي لَهُ.

صاحَ عبدُ اللَّهِ بنُ رواحَة معترضًا : يا قومِ ... واللَّهِ إنَّ التى تكرهُونَ لَلَّتى خَرجْتُم تَطْلُبون الشَّهَادةَ ، ومَا نقاتلُ الناسَ بعددٍ ولا قُوةٍ ولا كثرةٍ ، ما نُقاتِلهُمْ إلا بهذَا الدينِ الَّذى أكرَمَنا اللَّهُ بهِ ، فانطلِقُوا فإنَّما هِى إحدَى الحُسنييْنِ ، إما ظهورُ نصرٍ وإمَّا شهادةٌ .

قال الناسُ : صدقَ واللَّهِ ابنُ رواحةَ .

واخترقَ المسلمونَ أرضَ الرومِ ، وانْقضُّوا على الأعداءِ فى شجاعَةٍ رهيبةٍ ، واستبسَلَ الآلافُ الثلاثةُ أمامَ المائتى ألْفٍ .. اخترقَ زيدُ بنُ حارثةَ صفوفَ الأعداءِ ، والرايةُ البيضاءُ فى يدهِ ترفرِفُ عاليًا ، وسيفُهُ يفرِّقُ الجنودَ .. مكثَ زيدٌ يقاتلُ حتّى استُشهِدَ فتناولَ جعفرٌ الرايةَ ورفعَهَا عاليًا ، وانقضَّ على الأعداءِ يمزقُهمْ حتى استُشْهِدَ .

أخذَ عبدُ اللَّهِ بنُ رواحةَ الرايةَ ووثبَ علىَ الأعداءِ فى بسالةٍ شديدةٍ حتَّى استُشهدَ .. تناولَ سيفُ اللَّه خالدُ بنُ الوليدِ الرايةَ وقاتلَ قِتالاً مريرًا ، وانقضَّ علَى الأعداءِ كالأسدِ الغَاضبِ حتَّى انكسرَ فى يدِه تسعةُ سيوفٍ ، وصمدَ المسلمونَ أمامَ الرُّومانِ حتَّى هبطَ الظَّلامُ وتفرقتِ الجنودُ .

قضَى خالدُ بنُ الوليدِ الليلَّ ساهرًا قلقًا يفكرُ فى خطةٍ لإنقاذِ المسلمينَ والعودةِ بالجيشِ سالمًا دون أن يتعقبَهُ الرومانُ .

وَفى الصباحِ اشتبكَ الجيشانِ واشتدَّ القتالُ ، وبدأَ خالدٌ يتأخرُ بجيشِهِ إلى الخلفِ ، فظنَّ الرومانُ أنَّ المسلمينَ يَخْدَعُونَهم ويستدرجونَهم إلى الصحراءِ حتَّى ينفردُوا بهمْ ، فخافُوا أنْ يتعقبُوهُمْ.

عادَ خالدٌ بالجيشِ إلى المدينةِ بعدَ أنْ وجهَ إنذارًا خطيرًا إلى الرومانِ أكبرِ قوةٍ فى العالمِ فى ذلكَ الوقتِ.

فتحُ مكَّةَ

اعتدتْ بنُو بكرٍ علَى قبيلةِ خُزاعةَ ، وأمدتْ قريشٌ بنى بكرٍ بالسِّلاحِ ولمْ تجرؤ علَى القتالِ معَهُمْ إلاَّ فِى اللَّيلِ لأنَّ خزاعةَ فِى حلفِ الرَّسولِ ﷺ ، وقدْ نصتْ معاهدةُ الحُديبيةِ علَى ألا يتعرضَ بنو بكرٍ وقريش إلى المسلمينَ وخزاعةَ ، وبذلِكَ خرقتْ قُريشٌ المعاهدةَ.

جاءَ الخبرُ إلى النَّبىِّ ﷺ فاشتدَّ غضبُه ، وقررَ أنْ يقومَ بعملٍ حاسمٍ ، وندمتْ قريشٌ علَى الجريمةِ الَّتى ارتكبتهَا ، فأرسلتْ أبا سفيانَ إلى الرَّسولِ ﷺ يُصالحهُ ويسترضِيه.

قَدِمَ أبُو سفيانَ المدينةَ وأتى الرَّسولَ ﷺ وخاطَبه ، لكنَّهُ لمْ يردْ

عليـه ، ذهبَ الرجلُ إلى أَبى بكـرٍ ورجـاه أنْ يُكلِّمَ الرَّسـول ﷺ فقالَ : مَا أنا بفاعلٍ.

انطلقَ الرجلُ إلـى عـمرَ بن الخطـابِ وكلَّمهُ فـقـالَ لهُ : ويـحكَ يا أبَا سـفـيـانَ ، لقـدْ عَـزِمَ رسولُ اللهِ ﷺ علَى أمـرٍ مَا نـستـطيعُ أنْ نكلمَه فيه.

وعندئذٍ أظلـمتْ الدُّنيا أمامَ عينى أَبى سـفـيـانَ ، فعـادَ إلى مكَّةَ يجرُّ أذيالَ الخيبةِ .

أَمرَ رسولُ اللهِ ﷺ أصحابَه بالتجهُّزِ والاستعدادِ للرحيلِ ثُمَّ دعَا اللَّهَ : « اللهمَّ خُـذْ العـيـونَ والأخـبـارَ عَن قـريشٍ حتَّى نـبـغـتَـهـا (نفجأها) فِى بلادِها».

غـادَر النبىُّ ﷺ المدينةَ فِى رمضـانَ عام ٨ هـ فى عـشـرةِ آلافٍ مِن الصحابةِ متجهًا إلى مكَّةَ ، وفِى الطريقِ لقيه العباسُ بن عبدِ المطلبِ وأهله وأسلمُوا جـمـيعًـا ، ثُمَّ قـابله ابنُ عـمهِ أبُو سـفـيـانَ بن الحـارثِ وابن عمِهِ عبد اللَّهِ بن أميةَ فأسلمَا.

اقتـربَ الجـيشُ مِن مكَّةَ فـخـشِـىَ العبـاسُ علَى قـومـهِ وبـحثَ عنْ أحدٍ مِن العربِ يخبرُ قريشًا بتحركِ الرسولِ ﷺ حتَّى يخرجُوا إليه قبلَ دخولِ مكَّةَ فيطلبُوا منه العفْو والأمانَ.

وبينمَا العباسُ يسيرُ إذْ سمعَ صوتَ أَبِى سفيانَ ، فقالَ لهُ : هذَا رسولُ اللهِ ﷺ فِى النَّاسِ.

قالَ أبُو سفيانَ : فمَا الحيلةُ ؟ فداكَ أَبِى وأُمِى.

قالَ العباسُ : اركبْ خلفِى حتَّى آتِى بكَ رسولَ اللهِ ﷺ فأستأمنُهُ لكَ ، انطلقَ العباسُ إلى الرَّسولِ ﷺ وقالَ لَهُ : إنِى قدْ أجرتُ أبَا سفيانَ.

فقالَ الرسولُ ﷺ : اذهبْ بهِ يا عباسُ إلى رحلِكَ ، فإذَا أصبحتَ فأتنِى بِهِ.

ومعَ نسماتِ الصباحِ أسرعَ أبُو سفيانَ إلى الرسولِ ﷺ وأسلمَ بينَ يديهِ ، قالَ العباسُ: يا رسولَ اللهِ ، إنَّ أبا سُفيانَ رجلٌ يحبُّ الفخرَ فاجعل لَهُ شيئًا.

قالَ الرسولُ ﷺ : « نعمْ ، مَنْ دَخلَ دار أَبِى سُفيانَ فهُو آمنٌ ، ومَنْ أغلَقَ بابَه فهو آمنٌ ، ومَنْ دَخلَ المسجدَ الحرامَ فهوَ آمنٌ ».

اشتدَّ فرحُ أَبِى سفيانَ ، ووقفَ مشدوهًا مذهولاً وجيشُ المسلمينَ يمرُّ أمامَه ، وحينَ مرتْ كتيبةُ الرَّسولِ ﷺ وفِيها المهاجرونَ والأنصارُ قالَ:

مَا لأحدٍ بهؤلاءِ قِبَلٌ ولا طاقَةٌ ، واللهِ يا أبَا الفضلِ (العباس) لقدْ أصبحَ مُلكُ ابنِ أخيكَ الغداةَ عظيمًا.

قالَ العباسُ : يا أبَا سُفيانَ ، إنها النبوةُ.

قالَ أبُو سفيانَ : فنعمْ إذنْ .

قالَ العباسُ : النجاءَ (الإسراع) إلى قومِكَ .

وانطلقَ أبُو سُفيانَ إلى قريشٍ وصرخَ بأعلَى صوتِه: يا معشرَ قريشٍ ، هذَا محمدٌ قدْ جاءَكُمْ فِيمَا لا قِبلَ لكُمْ بِهِ ، فمنْ دخلَ دارَ أَبِي سُفيانَ فَهوَ آمنٌ ، ومنْ أغلَقَ عليهِ بابَهُ فهَو آمنٌ ، ومنْ دخلَ المسجدَ الحرامَ فهَو آمنٌ.

هرعَ النَّاسُ يختبئُون فِي بيوتِهِم والمسجدِ ، بينمَا خرجتْ جماعةٌ مِن المشركينَ وكمنُوا علَى جانبي الطريقِ للغدرِ بالمسلمينَ.

وتحركَ جيشُ الرَّسولِ ﷺ داخلاً مكَّةَ وأوصَى الرسولُ ﷺ أصحابَه ألا يُقاتلُوا ، وأحبطَ جندُ اللهِ مؤامرةَ الغَادرِين.

دخلَ النبيُّ ﷺ المسجدَ وقبَّلَ الحجرَ الأسودَ ، ثُمَّ طافَ بالكعبةِ ، وكانَ حَولَها ثلاثُمائةٍ وستُّون صنمًا .

أخذَ الرسولُ ﷺ يطعنُ الأوثانَ بقوسِه فتتساقطُ على وجوهِهَا وهوَ يقولُ : « جاءَ الحقُّ وزهقَ الباطلُ إنَّ الباطلَ كانَ زهوقًا» ، وأخذَ محمدٌ مفتاحَ الكعبةِ مِن عثمانَ بن طلحةَ ودخلَها وأمرَ بمحوِ صورِ الأنبياءِ المرسومةِ داخلها ، ثُمَّ صلَّى فِي الكعبةِ وقالَ : « لاَ إله إلا اللهُ

وحدهُ لا شريكَ لهُ ، صدقَ وعدَه ، ونصرَ عبدَه ، وهزمَ الأحزابَ وحدَهُ» .

نظرَ النبيُّ ﷺ إلى المشركينَ وقدْ نكسُوا رءوسَهم فِي ذلٍّ وخضوعٍ ينتظرُونَ مصيرَهُمْ ، وتساءلَ : يا معشرَ قريشٍ ، ما ترونَ أنى فاعلٌ بكُمْ؟

قالوا : خيراً ، أخٌ كريمٌ ، وابن أخٍ كريمٍ .

قال الرسولُ ﷺ : « اذهبُوا فأنتُمُ الطلقاءُ » .

تعجَّبَ القومُ وأصابَهم الذهول ... أيعفُو عنْهم الرَّسولُ ﷺ بعدَ أنْ آذوْهُ وحاولُوا قتلَهُ ، أيعفُو عنْهم بعدَ أنْ أخرجُوه مِن بلدِه ، أيعفُو عنهم بعدَ أنْ عذبُوا المؤمنينَ وقتلُوهم ، أيعفُو عنْهم بعدَ الحروبِ الَّتى خاضُوهَا ضدهُ ، وهرعَ القومُ يدخلونَ فِى دينِ اللهِ أفواجًا ، وجلسَ الرسولُ ﷺ فى المسجدِ ، ثُمَّ ردَّ مفتاحَ الكعبةِ إلى عثمانَ بن طلحةَ ، وقالَ : هاكَ مفتاحكَ يا عثمانُ .. اليومُ يومُ برٍّ ووفاءٍ .

ارتفعَ صوتُ بلالٍ بالأذانِ فى الكعبةِ يرددُ : اللَّهُ أكبرُ .. اللَّهُ أكبرُ .

غزوةُ حنينٍ

اشتدَّ غيظُ بعضِ القبائلِ العربيةِ حينَ علمتْ بفتحِ مكَّةَ ، وانطلقَ مالكُ بنُ عوفٍ زعيمُ قبيلةِ هوازن يحرضُ العربَ ويحشدُ الجموعَ لحربِ المسلمينَ ، فانضمتْ إليهِ قبائلُ ثقيفٍ ونصرٍ وجُشَمٍ وآخرون ، وساقَ مالكٌ معَ النَّاسِ أموالَهم ونساءَهم وأبناءَهم حتَّى يفنُوا أنفسَهُمْ في المعركةِ دونَ أنْ يفرُّوا .

وخرجَ الرسولُ ﷺ منْ مكَّةَ في جيشٍ عددُه اثنا عشرَ ألْفَ مُسْلِمٍ وانطلقَ إلى هوازن في يومِ السبتِ السادسِ من شوَّالٍ سنة ٨ هـ .

انتهَى الجيشُ الإسلاميُّ إلى حنينٍ ليلَةَ الثلاثاءِ ، وكانَ مالكُ بن عوفٍ قدْ سبقَهُمْ فوزَّعَ جيشَه في الوادِى والشِّعابِ والمضايقِ ونصبَ الكمائنَ ، وحينَ انحدرَ المسلمونَ لاجتيازِ وادى حنين إذَا بالسهامِ تنزلُ عليهِم كالمطرِ ، وانقضَّ الأعداءُ عليهِم فتراجعَ المسلمونَ ، واضطربتْ صفوفُهُمْ ، واتجهَ الرَّسولُ ﷺ جهةَ اليمينِ وهَو يقولُ : « هلمُوا إلَيَّ أيُّهَا الناسُ ، أنا رسولُ اللهِ ، أنَا مُحمَّدُ بنُ عبدِ اللهِ »

اقتحمَ النبيُّ ﷺ صفوفَ الكفارِ ، وهَو يقولُ : « أنا النبيُّ لا

كذبْ ، أنَا ابنُ عبدِ المطلبِ» ، ودعَا النبيُّ ﷺ ربَّه قائلاً : «اللهُمَّ أنزلْ نصركَ» .

اجتمعَ حوله مائةُ مسلمٍ فانقضُّوا علَى المشركينَ واشتدَّ القتالُ وهجمَ عليُّ بنُ أَبي طالبٍ علَى صاحبِ راية هوازن فقضَى عليهِ ، وتوافدتْ جموعُ المسلمينَ وأنزلَ اللّٰهُ جنودًا مِن الملائكة انقضتْ على الأعداءِ يمزقونَهم حتَّى فرُّوا وتركُوا نساءَهم وأطفالَهم ، قالَ تعالَى : ﴿ .. **وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ** (٢٥) ﴾ [التوبة]

فرَّتْ معظمُ فلول هوازن وثقيف إلى الطائفِ وتحصنُوا بهَا ، فسارَ إليهم النبيُّ ﷺ بجيشهِ ونزلَ قريبًا من حصنِهم ، وفرضَ الحصارَ علَى أهلِ الحصنِ بضعًا وعشرينَ ليلةً ، وكانتِ السهامُ تنطلقُ نحوَ المسلمينَ من أهلِ الحصنِ فتصيبهُمْ ، واضطرَّ المسلمونَ إلى الابتعادِ عنْ معسكرِهم ، ونادَى مُنادى الرَّسولِ ﷺ :

أيُّمَا رجلٌ نزلَ مِن الحصنِ وخرجَ إلينَا فهو حرٌّ ، فخرجَ إليهِ ثلاثةٌ وعشرونَ رجلاً ، وأمرَ الرسولُ ﷺ بالرجوعِ ، وقالَ لأصحابه : قولُوا آيبُون تائبُون عابدُونَ لربِّنا حامدُونَ ، قالَ بعضُ المسلمينَ : يا رسولَ اللّٰهِ ادعُ علَى ثقيفٍ .

فقَالَ : اللهمَّ اهْدِ ثقيفًا وأتِ بهِم.

اصطحبَ النبيُّ ﷺ غنائمَ هوازنَ وثقيفَ مِن الأموالِ والنساءِ والأبناءِ ، فلحقَ بِهِ وفدٌ مِن هوازنَ ورجوه أنْ يتركَ نساءَهم وأبناءَهم فردَّهم إليهِم وقالَ : أخبرُوا مالكًا (بن عوفٍ) أنه إنْ أتانِى مسلمًا رددتُ عليهِ أهلَهُ ومالَهُ ، وأعطيتُهُ مائةً مِن الإبلِ.

طارَ الخبرُ إلى مالكٍ فقفزَ علَى فرسِهِ وأتى النبيَّ ﷺ مسلمًا فعفَا عنْهُ وردَّ إليهِ أهلهُ ومالَهُ وجعله زعيمًا على قومِهِ.

غزوةُ تبوك

لمْ ينسَ قيصرُ رومَا مَا حدثَ فِي غَزوة مؤتةَ ، وكيفَ تجرأَ المسلمونَ علَى حربِ الرومِ أعظم امبراطوريةٍ فى العالمِ آنذاكَ ، وخشيَ أنْ يُشجعَ ذَلِكَ باقى القبائلِ العربيةِ التابعةِ لرومَا فتستقلَّ عنْها.

وقررَ قيصرُ القضاءَ على الخطرِ الَّذى يهددُ امبراطوريتهُ ، فجهَّز جيشًا جبارًا من الرومانِ والعربِ لسحقِ المسلمينَ نهائيًّا.

وترامتْ الأخبارُ إلى المدينةِ ، وتسربَ الخوفُ إلى قلوبِ الناسِ إذْ كيفَ يواجهونَ حشودَ الرومانِ ذاتَ الأسلحةِ الفتاكةِ.

وتحَيَّنَ المنافقونَ الفرصةَ فبنَوْا مسجداً وهَو مسجدُ الضرارِ كى يجتمعُوا فيهِ فيعقدُوا مؤتمراتِهمْ داخلَهُ ، دونَ أن يشكَّ فيهم أحدٌ ، ولكنَّ الرسولَ ﷺ كشفَ كيدَهُمْ وهدَمَ مسجدَهُم وأعلنَ فِى المسلمينَ أنْ يتجهزُوا للحربِ ، وبعثَ إلى قبائلِ العربِ .

كانتْ المهمةُ شاقةً لشدةِ الحرِّ والجدبِ آنذاكَ ، لكنَّ المسلمينَ هبُّوا يلبُّون نداءَ النبىِّ ﷺ وأقبلتْ الوفودُ من أرجاءِ الجزيرةِ إلى المدينةِ ، وتسابقَ المسلمونُ فِى الإنفاقِ لتجهيزِ الجيشِ فتبرعَ عثمانُ بن عفانَ بتسعمائةِ بعيرٍ ، ومائةِ فرسٍ ، وألفِ دينارٍ ، وتبرعَ أبو بكرٍ بمالِهِ كلِّه ، وعمرُ بنصفِ مالِهِ ، وتتابعَ الصحابةُ رجالاً ونساءً يقدمُونَ ما يملكُونَ لتجهيزِ الجيشِ كأحسنِ مَا يكونُ. وحانَ الوداعُ ، وتحركَ الجيشُ بآلافهِ الثلاثةِ نحوَ الشَّمالِ قاصداً تبوكَ ، ولمْ يتخلفْ عنه سوى بعضِ المنافقينَ وثلاثةٍ من الصحابةِ .

عانَى المسلمونَ مِنَ الحرِّ الشديدِ والعطشِ والجوعِ ، فكانُوا يأكلُونَ أوراقَ الشجرِ ، ودعَا الرسولُ ﷺ ربَّه فأرسلَ سحابةً فأمطرتْ وارتوى المسلمُونَ.

استأنفَ الجيشُ سيرَهُ حتَّى نزلَ تبوكَ فأقامَ معسكرَه هناكَ

وخطبَ الرسـولُ ﷺ خطبـةً بليـغـةً رفـعتْ مـعنويـاتِ المسلمينَ وأشعلتْ حماسَهُمْ .

مكثَتْ حشـودُ الرومـانِ تنتظـرُ فِي قلقٍ ، وحينَ سَـمِـعتْ بمقـدمِ جيشِ الرسولِ ﷺ أصـابَهم الرعـبُ ، وتفرقُوا فِي البلادِ خوفًا مِن مـلاقـاتِه ، والتـقَى بعضُ حكامِ الشَّامِ مَع الرسـولِ ﷺ فـصـالحُـوه وأعطَوه الجزيةَ ، وعـادَ الجيشُ الإِسـلاميُّ مظفـراً منتـصـراً ، ودخلَ النبيُّ ﷺ المدينةَ فـصلَّى ركـعـتينِ بالمسجـدِ ثُمَّ جلسَ للناسِ فـجـاءَ الصحابةُ الثلاثةُ يعترفُونَ بذنبِهمْ فأمرَ النبيُّ ﷺ بمقـاطعتِهمْ ، وبعدَ خمسينَ ليلةً مِن العُزلةِ تابَ اللهُ عليهِم وغفرَ لهُمْ.

وكـانَ لهزيمةِ الرومِ أثرٌ عظيمٌ فِي نفوسِ العربِ ، فأقبلتْ وفودُ القبـائلِ مِن أنحـاءِ الجزيرةِ العربيـةِ تُعلنُ إِسـلامَـهـا ، وتدخلُ فِي دينِ اللهِ وعُرِفَ ذَلكَ العامُ بعامِ الوفودِ .

حَجةُ الوَداعِ

عاشَ المسلمونُ فرحةَ النصـرِ علَى الرومِ ، وانتشـرَ خبرُ الإِسلامِ فِي شتَى بقـاعِ الأرضِ ، وتجهـزَ النبيُّ ﷺ لأداءِ فـريضةِ الحجِ فتوافدَ

عشـراتُ الآلافِ مِن المسلمينَ إلى المدينةِ لمرافقةِ الرسولِ ﷺ فِى رحلةِ الحجِّ .

خرجَ النبىُّ ﷺ بعدَ ظهرِ السَبتِ لأربعٍ بقينَ مِن ذِى الحجةِ عام (١٠ هـ) فوق ناقته القصواء ، ودخلَ مكةَ ، وبعدَ أنْ طافَ بالكعبةِ وصلَّى خطبَ فِى الناسِ قَائلاً :

«أَيُّهَا النَّاسُ .. إنَّه لا نبىَّ بعدِى ، ولا أمة بعدَكم ، ألا فاعبدُوا ربكُمْ ، وصلُّوا خمسكُمْ (الصلوات الخمس) ، وصومُوا شهركُمْ ، وأدُّوا زكاةَ أموالِكُمْ طيبة بهَا أنفسكُمْ ، وتحجونَ بيتَ ربكُمْ ، وأطيعُوا وُلاةَ أمرِكُمْ تدخلُونَ جنةَ ربكُمْ» .

أمَّا بعدُ ... أيُّها الناسُ فإنَّ الشيطانَ قدْ يئسَ مِن أنْ يُعْبدَ بأرضِكُمْ هذِهِ أبدًا .. وعلَّم النبىُّ ﷺ الناسَ كيفيةَ أداء الحجِّ ، وحمدَ اللّهَ وخطبَ قائلاً :

أَيُّها النَّاسُ ، اسمعُوا قولى ، فإنى لا أدرِى لعلِّى لا ألقاكم بعد عامِى هذَا ، بهذَا الموقفِ أبدًا .. أيها الناسُ إنْ دماءَكُمْ وأموالَكُمْ عَليكُمْ حرامٌ إلى أنْ تلقوا ربكم كَحُرْمةِ يومكم هذَا وكحرمةِ شهرِكُمْ هذَا ، وإنَّكُمْ ستلقونَ ربَّكم فيسألَكُمْ وقدْ بلَّغْتُ ، فمنْ كانتْ عِندَه أمانةٌ فليُؤدِّها إلى مَنْ ائتمنه عليْهَا .

فاعقلُوا أيها الناسُ قولي ، فإني قدْ بلَّغْتُ ، وتركتُ فِيكُمْ مَا إنْ اعتصمتم بهِ فَلنْ تضلُّوا أبداً ، أمراً بيِّنًا ، كتابَ اللهِ وسنةَ نبيهِ .. أيُّها الناسُ اسمعُوا قولي واعقلوه ، واعلمُوا أن كلَّ مسلمٍ أخٌ للمسلمِ وأن المسلمينَ إخوةٌ فلا يحلُّ لامرئ إلا ما قدْ أعطاه عن طيبِ نفسٍ منه ، فلا تظلمُوا أنفسَكُمْ ، اللهمَّ هلْ بلَّغْت ؟

قالَ المسلمونَ : اللهمَّ نعمْ. قال الرسولُ ﷺ : اللهمَّ اشهدْ.

وَنَزلتِ الآيةُ : ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا .. (٣)** ﴾ [المائدة]

وأذَّنَ بلالُ بنُ رباحٍ فصلَّى النبيُّ ﷺ بالناسِ وأتمَّ شعائرَ الحجِّ ، فكبرَ وهللَ وطافَ بالكعبةِ ، ووقفَ علَى جبلِ عرفاتٍ ورمى الجمرات ، وأخيراً عادَ إلى المدينةِ المنورة ، فجاءته الأخبارُ باستعدادِ الرومِ لحربِ المسلمينَ ، فأمرَ بتجهيزِ جيشٍ كبيرٍ بقيادةِ أسامة بن زيد .

وَفاةُ الرَّسُولِ ﷺ

أحسَّ النبيُّ ﷺ بقُرْب رَحيله ، وشعرَ بحنينٍ إلى أصحابه الشهداءِ ، فخرجَ إلى البقيعِ وزارَ مقابرَ الشهداءِ واستغفرَ لهُمْ ،

وعندمَا عادَ إلى بيتهِ وجد زوجتَه عائشةَ تشتكى وتقولُ : وا رأساهُ ، فقالَ النبىُّ ﷺ : بلْ أنا واللهِ يا عائشةُ وارأساه.

وبدأَ الألمُ يشتدُّ بالرسولِ ﷺ ، وخرجَ يومًا عاصبًا رأسه حتَّى جلسَ على المنبرِ وقالَ : « إنَّ عبدًا للَّهِ خيَّره الله بينَ الدُّنيا وبين ما عنده فاختارَ ما عند الله».

وفهمَ أبو بكرٍ كلامَ النبىِّ ﷺ ، وعرفَ أنه يريدُ نفسه فبكى، وارتفعتْ حرارةُ الرسولِ ﷺ فاشتدَّ به الألمُ وجلستْ عائشةُ تقرأُ المعوذتينِ والأدعيةَ ، ثمَّ تصبُّ الماءَ فوقَ رأسهِ حتىَّ أحسَّ بخفةٍ فدخلَ المسجدَ وجلسَ على المنبرِ ، وخطبَ قائلاً:

« منْ كنتُ جلدتُ له ظهرًا فهذا ظهرى فليستقدْ (ليقتص) منه، وأوصى النبىُّ ﷺ بالأنصارِ خيرًا ، وأخذَ يرددُ : الصلاةُ وما ملكتْ أيمانُكُمْ ، وكانَ النبىُّ ﷺ رغمَ مرضهِ يصلِّى بالناسِ حتَّى زادَ ثِقلُ المرضِ عليهِ ، فلمْ يستطعْ الخروجَ ، وكانَ كلما همَّ بالخروجِ أغمى عليهِ ، وحينَ أفاقَ قالَ : مرُوا أبا بكرٍ فليصلِّ بالناسِ».

وفى يومِ الاثنينِ ، خرجَ النبىُّ ﷺ عاصبًا رأسه إلى صلاةِ الصبح وأبو بكرٍ يصلى بالناسِ، فلمَا رآه المسلمونَ فرحُوا ، فتراجَعَ أبو بكرٍ للوراءِ حتَّى يصلى النبىُّ ﷺ بالناسِ ، فأشارَ بيدهِ أن أتمُّوا

صلاتَكُمْ، وفِى ذلكَ اليومِ دعا النبىُّ ﷺ الحسنَ والحسينَ فقبَّلهما وأوصى بهما خيراً .

رجعَ النبىُّ ﷺ فاضطجعَ فى حجرِ عائشةَ ، ودخلَ عليهِ رجلٌ من آل بكرٍ ، وفى يدهِ سواكٌ أَخضرٌ .. نَظر النبىُّ ﷺ إلى السواكِ فقالتْ عائشةُ : يا رسولَ اللهِ ، أتحبُّ أن أُعطيكَ هذَا السواك ؟

قالَ : نعم ، فأخذتْه عائشة فمضغتْه حتَّى لَيَّنته ثم أعطته إياهُ ، فاستعملَهُ ثمَّ وضعه وشخصَ ببصرِهِ ، وهو يقولُ : « بلْ الرفيقَ الأعلى من الجنةِ » .

وصعدتْ روحُ الرسولِ ﷺ الطاهرةِ الزكيةِ إلى الرفيقِ الأعلى ... فقالتْ عائشةُ : خُيِّرْتَ فاخترتَ ، والَّذِى بعثكَ بالحقِّ .

تلقى المسلمونَ النبأَ المفجعَ ، فصاحَ عمرُ وكأنه لا يصدقُ : إنَّ رسولَ اللهِ ماتَ وأخَذَ يقولُ واللهِ ما ماتَ ، ولكنه ذهبَ إلى ربِّه كمَا ذهبَ مُوسَى بنُ عمرانَ ، فقد غابَ عن قومِهِ أربعينَ ليلةً ثمَّ رجعَ إليهم بعدَ أنْ قِيلَ : قدْ ماتَ .

وأقبلَ أبو بكرٍ فكشفَ عن وجهِ الرسولِ ﷺ الشريفِ وقبَّلَهُ ثمَّ غطَّى وجهَهُ وقالَ للنَّاسِ : أيها الناسُ ، إنَّ مَنْ كانَ يعبدُ محمداً فإن محمداً قد ماتَ ، ومَنْ كانَ يعبدُ اللهَ فإنَّ اللهَ لا يموتُ ، ثمَّ تلا الآية :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) ﴾ [آل عمران]

أفاقَ عمرُ والمسلمونَ حينَ سمعُوا تلكَ الآيةَ ، وكأنهم لمْ يسمعُوهَا من قبلُ ، وأيقنُوا أنَّ النبيَّ ﷺ قدْ ماتَ ، وخَشِيَ الصحابةُ أنْ تحدثَ فرقةٌ بينَ المسلمينَ ، فبايعُوا أبا بكرٍ خليفةً لرسولِ اللهِ ﷺ ، وحاكمًا للمسلمينَ .

تمَّ تجهيزُ الرسولِ ﷺ وحُفِرَ تحتَ فراشِهِ تمهيدًا لدفنِهِ تنفيذًا لقوله : « ما قُبِضَ نبيٌّ إلاَّ دُفِنَ حيثُ قُبِضَ » .

وتتابعتْ جماعاتُ المسلمينَ ، فصلَّى عليهِ المهاجرونَ ثمَّ الأنصارُ، ثم النساءُ ثم الصبيانُ ، ودُفِنَ جسدُ النبيِّ الشريفُ صلواتُ اللهِ عليهِ وعلَى آلهِ وسلَّم .